أبو العبر الهاشمي

داد إلى من زمن بني العبّاس!

عادل العامل

ظهرت في المجتمع العربي الاسلامي في زمن بني العباس ، نتيجة للتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بنية ذلك المجتمع ، ظواهر عدة ، واتسعت غيرها لتشمل دائرة أوسع ولتتخذ سمات أكثر وضوحاً مما كانت عليه في السابق ، مثل اللصوص والموسوسين والمجانين والسكارى والظرفاء والحمقى والمتحامقين .

وقد برزت ظاهرة الحمقى والمتحامقين ، شكلا من أشكال الاحتراف في القرن الثالث الهجري ، وأصبحت تعبيراً صريحاً عن التصدع الذي حدث في قوام الدولة والمفاهيم الاجتماعية الموروثة وانقلابها رأساً على عقب . فاذا ما أراد المرء ، المثقف على وجه خاص، العيش بعافية وسلامة، مع الحفاظ على موقفه الرافض أو المتحفظ من السلطة ، ادّعى الجنون والوسوسة أو الصرع . واذا ما أراد لعقله المعايشة السلمية مع أسباب الخلل في البنية الاجتماعية ، انصرف الى معاقرة الخمرة والمجون ، أما اذا أراد الكسب السريع والحظوة والشهرة ، تحامق وجعل من موهبته شاعراً ، مثلا ، مصدراً للاشتهار والاثراء وجسراً للوصول الى الطبقة المنحلة من الأعيان .

وهذا ما حدث ، بالضبط ، لأبي العبر الهاشمي ، الذي لم تقف قرابته للخليفة الحاكم حائلا دون انحداره الى مستوى السخف والتجاهل والحمق الذي انحدر اليه ، بل واستثمر تلك القرابة الى أقصى حد ، ليصبح في الأخير أحمق البلاط الأول ونقيباً رسمياً للحمقى ، آنذاك !

كان أبو العبر ، اذن ، واعياً لقراره ومدركاً الطبيعة ذلك العصر ، الذي لن يستطيع اختصار طريق الشهرة والحظوة فيه ، مع وجود شعراء كبار كالبحتري وأبي تمام ودعبل

الخزاعي ، الا بسلوك الطريق المضاد ، الأقصروالأقل عناء • فلن يكلفه ذلك كثيراً : ماء وجهه ، وليس شيئاً آخر سواه ! ولم تكن التجربة جديدة عليه ، بالرغم من أنه كان ، لفترة من حياته ، أديباً صالحاً ، كما يذكر الرواة• فقد اختلف، أيام صباه ، مع غيره من الأحداث، الى رجل يعلمهم الهزل • فكان هذا يقول لهم(١) : « أول ما تريدون هو قلب الأشياء » • وقد أثبت أبو العبر ، حقاً ، أنه تلميذ «نجيب»في تلك المدرسة ، وبقي مخلصاً لهذه الطريقة في ممارسة السخف والتحامق حتى النهايـة ،متفوقاً في ذلك على أساتذته وعلى زملائه في الحرفة مثل أبي العنبس الصيمري وأبي البغل وغـيرهم •

اسمـــه ونسبـــه

يختلف رواة المصادر المترجمة له في اسمه • فبعضهم يقول : أحمـد بـن محمـد ، وبعضهم الآخر يقول محمد بن أحمد • فقد ذكر المرزباني(٢) انه : أبو العبر أحمد بن محمد بن عبدالله بن عبدالصمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب ، وهذا ما ذكره أيضاً ابن ماكولا وابن شاكر الكتبي ،والزبيدي والعسقلاني • أما الأصفهاني(٣) ، فقد ذكر انـه : أبو العباس محمد بن أحمد ، ويلقب بالحامـض ، ابن عبدالله بـن عبد الصمـد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب• وكذلك الحال مع ياقوت الحموي ومحمد بن داود والبكري والزركلي •

كنيتـــه

واذا لم يستطع أبو العبر أن يتلاعب باسمـه ونسبـه أيضاً ، فانـه استطاع ذلـك بكنيته • فقد ذكر أنه غيَّر كنيته من (أبي العبـاس) الى (أبي العبر) • ولم يكتـف بذلك بل أخذ يزيد فيها كل عام حرفاً حتى مات ، وكنيته ، كما يوردها ، الأصفهاني(٤): أبو العبر طرد طبل طيري بك بك بك ! وفي مخطوط(٥) انها : طر طيطليري بك بكبك ! وذكر البكري(٦) انها : أبو العبر طر طيل طليري بك بك بك ! أما ابن شاكر الكتبي(٧)، فقد ذكرها كالتالي : أبو العبر طزد طبك طنبلدي بك بك بك ! وذكرها كل من صاحب (كنى النزهة) وصاحب (كتاب الألقـاب)انها(٨) : أبو العبر طزد !

ويضبطها بعضهم : أبو العبر ، بكسرة ثم فتحـة ، كالمرزباني وياقـوت الحموي والزبيدي • أما لدى ابن ماكولا والعسقلاني والبكري والبغـدادي ، فهي : أبو العَبَـر ، بفتحتين • وربما أوردها بعضهم : أبو عبَـرة أو أبو العبَـرة ، بفتحتين •

□ حياتـــه :

ولد أبو العبَـر ، كما يذكر أبوه(٩) ، بعد خمس سنين خلت من خلافة الرشيـد • واذا علمنا أن الرشيد تولى الخلافة سنة سبعين ومائة ، فهـذا يعني أنـه ولد سنـة خمس وسبعين ومائة • وكان يختلف مع غيره مـن الأحداث الى رجل يعلمهم الهزل ، وقد أظهر أبو العبر براعة وتفوقاً في دروسه تلك ، حتى طلب منه أستاذه ذاك ألا يصحبـه أكثر مـن ذلك ، فقد أصبح أستاذ الأستاذين(١٠) ! •

الا أن أبا العبر ، كما يبدو ، سلك فيمابعد مسلك غيره من الناس الذين يقولون الشعر ، مع توسطه . وكان ، على حد قول الصيمري له ، « أديباً ظريفاً ، مليح الشعر ، يسلك في شعره الجد ، الى أن ولي المتوكل العباسي الخلافة ، فترك الجد وعدل الى الحمق والشهرة به ، وقد نيف على الخمسين ، بعدأن رأى أن شعره لا ينفق مع مشاهدته أبا تمام والبحتري وأبا السمط بن أبي حفصة ونظراءهم(٩١) .

وكان يعلم جيداً أن بضاعة العصر النافقة هي الحمق ، ووجد في نفسه الاستعداد والميزات التي تؤهله للتفوق في هذا المجال المفتوح أمام كل خائب في مجالات الحياة الأخرى وكل راغب في الشهرة والكسب ،فعندما لامه أبو العنبس الصيمري ، وهو أحد متحامقي ذلك العصر ، على ذلك السخف الذي ملأ به الأرض شعراً وقصصاً وخطباً ، قال له: يا كشخان ، أتريد أن أكسد أنا وتنفق أنت؟ أنت أيضاً أديب شاعر فهم متكلم قد تركت العلم وصنعت في الرقاعة نيفاً وثلاثين كتاباً(١٢) » ...

وكما قالوا قديماً : « الجاهل ينال أغراضه ويظفر بآرائه ويطيع قلبه ويجري في عنان هواه وهو بريء من اللوم سليم من العيب ، تُغفر زلاته وتُتعمد هفواته(١٣) »، فقد جرى أبو العبر هذا المجرى السهل المفيد، وسار على هدي القائل(١٤) :

ما لي وللعقل الا استصحبته أبداً فالعقل ينزل دار الذل والهون

لقد تعاقلت دهراً لا أرى فرجاً ومذ تحامقت صار الناس يدنونني

فكسب بالحمق أضعاف ما كسبه كل شاعر في عصره بالجد ، ونفق نفاقاً عظيماً ، وكسب في أيام المتوكل مالا جليلا ، بل وأصبح نقيب الحمقى في ذلك العصر .

فقد تميز أبو العبر عن غيره من المتحامقين بميزات جعلته يتقدم على غيره ويكسب أكثر . أولا ، لأنه كان من أسرة الخليفة الحاكم ، الأمر الذي مهد له طريق الصعود السريع الى بلاطه وجعل له وضعاً خاصاً ، سواء كان ذلك وسط حاشية البلاط أم في الحياة العامة خارجه . ثانياً ، للجرأة الذاتية التي جعلته يضرب عرض الحائط بكل الاعتبارات القائمة آنذاك ، وينحو المنحى الذي يريد ، مما فتح لديه كل امكانات التفوق والبروز . وثالثاً ، ونتيجة لذلك ، أن أساليبه في التحامق جاءت على نحو يتسم بالتنوع والغرابة المثيرين للعجب وأسباب الشهرة السريعة . فهو لم يعتمد طريقة التحامق التقليدية المتمثلة في استخدام المحالات ومقلوبات الكلام وفحشه فقط ، بل وأضاف اليها ما يشبه طريقة دادائيي عصرنا هذا في تكوين قصائد شعر من ترتيب مزق أوراق مكتوبة ، على غير انتظام . فقد « كان ، كما يقول ، يبكّر فيجلس على الجسر ومعه دواة ويكتب كل شيء يسمعه من كلام الذاهب والجائي والملاحين والمكارين ،حتى يملأ الدرج من الوجهين ، ثم يقطعه عرضاً ، ويلصقه مخالفاً ، فيجيء منه كلام ليس في الدنيا أحمق منه !(١٥) كما استخدم التعري في غير وقته وموضعه المعتاد . فكان ،على سبيل المثال « يتصيد عارياً من كل شيء، بكل ما يخطر وما لا يخطر في البال من وسائل الصيد ، وبكل جوارحه، على حد قوله(١٦) » !

أو يستخدم الأشياء عكس استخداماتها التي خلقت لها ، كأن يضع خفّاً على رأسه بدل القلنسوة ، ويضع قلنسوتين في رجليه بدلامن الخف ، أو يدع المتوكل يلقي به من زلاقة الى البركة ثم يخرجه السُبّاح منها بشبكة لصيدالسمك ! » ٠

أي أنه كان مجدداً في ذلك المجال الذي زج بنفسه كلها فيه ٠ ولم يكن سلوكه ذاك خالياً من الموقف الفلسفي تجاه الحياة ومجرياتها آنذاك ، وفقاً للأسلوب الذي وجد أنه سينجح فيه، وقد نيف على الخمسين من عمره ٠ وهي سن التعقل بالنسبة للأسوياء من الناس ٠ ولكن أبا العبر كان استثناء ، ويا له من استثناء ! ٠

لقد عاش أبو العبر حياة سوية ، حتى الخمسين من عمره ، اذن ٠ وكان يجيد الشعر منذ عهد الأمين الى أيام المتوكل ، ثم أخذ في الحمق والمجون في الشعر والكلام المختلف ٠

أي أنه كان اختياراً واعياً وقراراً ومدروساً ، ذلك الذي اتخذه أبو العبر ، بعد زمن طويل ، حتى أصبح لا يوصف الا بالماجن ، الخليع ، الهازل ، الأحمق ، المتحامق ، الجاهل والمتجاهل وصاحب الشعر الأحمق ٠ وراح يتكسب بالمجون والخلاعة « فيكسب بالحمق أضعاف ما كسبه كل شاعر كان في عصره بالجد ، ونفق نفاقاً عظيماً ٠٠٠ » (١٧) ، وانصرف الى المتوكل ، ولي نعمته ، الذي أجزل له العطاء فأجزل له أبو العبر التحامق والشعر ، فله فيه ، كما يذكر الأصفهاني(١٨) « أشعار حميدة يمدحه بها ، ويصف قصره ، وبرج الحمام والبركة ، كثيرةالمحال ، مفرطة السقوط لا معنى لذكرها لا سيما وقد شُهرت في الناس » ٠ تُرى ، ما الذيجعل أبا العبر ، حقاً ، يتجه هذا الاتجاه فيختار الحمق على العقل ؟ وما الذي جعله ينفق نفاقاً عظيماً ويكسب بالحمق أضعاف ما كسبه كل شاعر كان في عصره ؟

واذا ماعتبرنا السؤال الثاني يصح جواباً للأول ، فما هو الجواب على السؤال الثاني، الذي يمكن طرحه بصيغة أخرى : ما الذي يجعل انساناً ، كأبي العبر ، يختار السقوط على الارتفاع بنفسه ، أو الحمق على العقل، ولماذا ينجح في اختياره هذا ؟ ٠

ان الاجابة ستقتضي منا ، بالتأكيد ، تفسير الظاهرة عن طريق معرفة مسبباتها ٠ والظاهرة ، هنا ، أبو العبر أو صرعة الحماقة في ذلك العهد ٠ فهناك ، بالطبع ، مسببات موضوعية هي الوضع القائم آنذاك ، اجتماعياًوسياسياً واقتصادياً ، أي الخلل الذي طرأ على جوانب من البنية الاجتماعية والرسميةالتي كانت تحيط المداحين والمهرجين والحمقى بأسباب النعمة والرخاء بينماتحجبها عن غيرهم ٠ أما المسببات الذاتية ، فهي الاستعداد النفسي لأبي العبر وميله للدعابة والسخرية ومخالفة ماهو سائد وعادي ، اضافة الى الوضع الشاذ لأسرته ، التي تربطها ، من جانب ، علاقة القربى بالخليفة والبيت الحاكم ، وتعيش ، من جانب آخر ، وضعاً معيشياً يدفعها الى استجداء المال من القاضي ، كما فعل أبوه وأخوه الصغير ، وربما هو أيضاً ، في مثل هذا الجو ، الذي يمكن أن يقال فيه : شر البلية ما يضحك نشأ أبو العبر وعاني حتى هزلت لديه الحياة، فداواها بالتي كانت هي الداء ! ٠

مع هذا كله ، فان أبا العبر كان أديباً فهماً وعالماً خبيراً بالنفس الانسانية والحياة ومجاهل الشعر ، لا يستعصي عليه حل مسألة بينما يحدث ذلك لمن أرادوا الاستهزاء به • وله مؤلفات مثل(١٩) (كتاب جامع الحماقات وحاوي الرقاعات) ، (كتاب المنادمة وأخلاق الرؤساء) وغيرهما • وقال جحظة(٢٠) عنه : « لم أر قط أحفظ منه لكل عين ولا أجود شعراً ، ولم يكن في الدنيا صناعة الا ويعملها بيده حتى لقد رأيته يعجن ويخبز » • الا أنه أضر بنفسه بتحامقه ، وجلب المنية اليه باظهاره لمعاداته الطالبيين ، التي كانت ، مع ذلك ، سياسة الخليفة المتوكل وسلطته الحاكمة آنذاك •

فقد كانت نهايته ، كما تذكر الروايات المختلفة(٢١) في تفصيلاتها على يد أحد الشيعة في الكوفة بعد أن سمعه « يقول في علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، قولا قبيحاً استحل به دمه فقتله في بعض الآجام وغرّقه فيها » •

□ شعره :

لم يكن أبو العبر ، وكان يعرف أنه لا يمكن أن يكون ، بوجود البحتري وأبي تمام ودعبل الخزاعي وابن الرومي وغيرهم ، شاعراً متألقاً بارزاً • ولذلك سلك طريقه ذاك • الا انه وكما يذكر رواة ونقاد ذلك العصر ، « كان صالح الشعر مطبوعاً يقول الشعر المستوي »(٢٢) ، « وأن له أدباً صالحاً وشعراً طيباً »(٢٣) • بل ان الاعجاب بأبيات له دفع أحدهم الى القول انه لو أراد دعبل ، وهو أهجى أهل زمانه أن يقول في معناها ما قدر على أن يزيد على ما قاله أبو العبر من أبيات ، وهي :(٢٤)

رأيت من العجائب قاضيين ... هما أحدوثة في الخافقين
هما اقتسما العمى نصفين فذّاً ... كما اقتسما قضاء الجانبين
هما قال الزمان بهلك يحيى ... اذ افتتح القضاء باعورين
وتحسب منهما من هزّ رأساً ... لينظر في مواريثٍ ودينِ
كانك قد جعلت عليه دنّاً ... فتحت بزالَه من فردِ عين

وربما بلغ التعبير عن الاعجاب حد المبالغة ، كما جاء في وصف جحظة لأبي العبر بقوله(٢٥) : لم أر قط أحفظ منه لكل عين ولا أجود شعراً ••

ومما من شك في أن لأبي العبر شعراً صالحاً ومليحاً ، كما يذكر الرواة • منه قوله متغزلاً(٢٦) :

هوى دفين وهوىً باد ... أظلم فجازيك بمرصاد
يا واحد الأمة في حسنه ... أسرفتَ في هجري وابعادي

قد كـدت مما نالنـي في الهـوى ... أخفـى علـى أعـين عـوّادي
عبـدك يحيـي موتـه قبلـة ... تجعلهـا خاتمـة الـزاد

وقولـه(٢٧) :

وفي سـاعدي ممـن تعلقت عضّة ... تذكّرني ذاك الشنيب المفلّجـا
وآثـار خدشٍ في يـدي مليحـة ... أقام عليهـا القلب منّي وعرّجـا
أمَا والذي أمسيتُ أرجو ثوابـه ... لقد حلّ ما أخشاه وانقطع الرجا

وقوله(٢٨) يصف نفسه وعلوّ همته ، وهي أبيات يتكرر استحسان الرواة والمؤلفين لها واستشهادهم بها في أكثر من مصدر :

ليس لي مـالٌ سـوى كرمـي ... فيـه أمنٌ لـي مـن العـدمِ
لا أقـول الله يظلمنـي ... كيـف أشكـو غـير متّهـمِ
قَنِعت نفسي بمـا رزِقَـت ... وتمطّـت في العلـى هِمَمـي
ولبستُ الصبرَ سابغـة ... فهـي مـن قرنـي الى قدمـي
فـاذا مـا الدهـر عاتبنـي ... لـم يجدنـي كافـر النعـمِ

فهل وجده الدهر هكذا ، حقاً ، بعدما تحامق فبلغ من الاسفاف والسخف والاستهزاء الحد الذي استحق معه قول محمد بن داود ، وهو يصفه(٢٩) : « انه صاحب الشعر الأحمق والكلام المختلق ، وهو أبرد الناس غير مدافع... » ؟ ! .

لننظر اليه في قوله(٣٠) ، والمتوكل يدفعه من زلاقة ليقع في البركة ثم يخرجونه منها بشبك الصيد :

ويأمـر بـي الملـك ... فيطرحنـي في البـرك
ويصطادنـي بالشبـك ... كأنـي مـن السمـك
ويضحـك كـك كـكـك ... ككـك كـك ككـك !

وقولـه(٣١) :

أنـا أنـا أنـت أنـا ... أنـا أبـو العبرنّـه
أنـا الغنـي الحمقوقـو ... أنـا أخـو المجنّـه

أنـــا أحـــرر شعـــري وقـــد يجـــي بردنّـــه
فلـــو سمعـت بشعـــري في الـــدسّ والوترنّـــه
لسَقـــرِ قَرِ سقـــرِ نفـــر ٠ ٠ ومـــا تارنّـــه
لكنـــك تضحـــك حتـــى تمســـك البطَطَنّـــه

وغير ذلك من المحالات التي كانت تعبيراً عن سخريته بكل شيء٠٠ نفسه وبعض الأوساط التي بلغ بها السخف حد الارتياح لمثل هـذه الحماقات والتشجيع عليهـا وتنصيب نقيب للحمقى تحت ظلها ٠ فما كان أبو العبر وغيره من المتحامقين الا الصورة المعلنة لجوهر أوساط في المجتمع آنذاك ارتاحت لهذا اللون أو وجهها الذي فقد ماءه ! ٠

الحواشـــي :

١ ـ جمع الجواهر ٨١ ٠ وقلب الأشياء أي عكسها ٠
٢ ـ معجم الشعراء ١٨٤ ٠
٣ ـ الأغاني ٢٣/٧٦ ٠
٤ ـ الأغاني ٢٣/٨٠ ٠
٥ ـ هامش المصدر نفسه ٠
٦ ـ سمط اللآلي ٨٧ ٠
٧ ـ عيون التواريخ / مخطوط ١٧٧ ظ ٠
٨ ـ تبصير المتنبه ٠
٩ ـ الأغاني ٢٣ / ٧٦ ٠
١٠ ـ جمع الجواهر ٨١ ٠
١١ ـ الأغاني ٢٣ / ٧٧ ٠
١٢ ـ المصدر نفسه ٠
١٣ ـ غرر الخصائص الواضحة ١٣٥ ٠
١٤ ـ المصدر نفسه ٠
١٥ ـ الأغاني ٢٣ / ٨١ ٠
١٦ ـ المصدر نفسه ٠
١٧ ـ الأغاني ٢٣/٧٦ ٠
١٨ ـ المصدر نفسه ٠
١٩ـ معجم الأدباء ١٧/١١٤ ٠
٢٠ ـ معجم الأدباء ١٧ / ١٢٢ ٠
٢١ ـ الأغاني ٢٣/٨٦ ومعجم الأدباء ١٧/١٢٣ ، ١٢٦ ٠
٢٢ ـ الأغاني ٢٣/٧٦ ٠
٢٣ ـ الأغاني ٢٣ / ٧٧ ٠
٢٤ ـ أشعار أولاد الخلفاء ٣٣٠ ، الأغاني ٢٣/٨٥ وفوات الوفيات ٢/٣٥٥ مع بعض الاختلاف ٠
٢٥ ـ معجم الأدباء ١٧/١٢٢ ٠
٢٦ ـ أشعار أولاد الخلفاء ٣٣٢ والأغاني ٢٣/٨٤ مع بعض الاختلاف ٠
٢٧ ـ ذيل الأمالي ٨٧ ٠
٢٨ ـ الزهرة ٢ / ١٩٥ ٠
٢٩ ـ معجم الأدباء ١٧ / ١٢٥ ٠
٣٠ ـ الأغاني ٢٣/٨٢ ٠
٣١ ـ طبقات الشعراء ٣٤٣ ٠